وَدِيْـــعَـــةُ اللَّـــهِ

كُنْتُ فَتىً مِنْ أَبْنَاءِ التُّجَّارِ وَاسِعَ الثَّرَاءِ ، وَرِثْتُ التِّجَارَةَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، حُزْتُ كُلَّ مَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ كُلُّ شَابٍّ فِيْ عَصْرِي مِنْ بَيْتٍ وَاسِعٍ وَجَمِيلٍ ، لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ لِلدُّنْيَا حَلاوَةً حَتَّى قَابَلْتُهَا . كَانَتْ امْرَأَةً مَلَكَتْ عَلَيَّ مَجَامِعَ قَلْبِي ، فَأَصْبَحَتْ دُنْيَايَ وَشُغْلِيَ الشَّاغِلَ ، فَلَمْ تَعُدِ الدُّنْيَا تَسَعُ سِوَاهَا .وَدَامَ حَالُ الْعِشْقِ وَالْهَيَمَانِ فِيهَا ، فَكُنْتُ كُلَّمَا لاَحَتِ التِّجَارَةُ بِخَاطِرِي وَهَمَمْتُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا ، أَقْعَدَنِي وَلَعِي وَشَغَفِي بِزَوْجَتِي ، وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ كَذَلِكَ حَتَّى تَنَاقَصَ الْمَالُ وَبَارَتِ التِّجَارَةُ ، فَأَخَذْتُ بِبَيْعِ مَا تَحْتَ يَدَيَّ مِنْ أَرَاضٍ حَتَّى بَلَغَ بِيَ الْحَالُ إِلَى بَيْعِ أَثَاثِيْ ، وَ بَقِيْنَا عَلَى حَصِيْرٍ تَقَطَّعَتْ مِنْهُ الْخُيُوطُ ، وَفِرَاشٍ بَكَى وَجْهُهُ وَتَنَاثَرَ قُطْنُهُ حَتّى اخْتَلَطَ فِي التُّرَابِ ، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ لَمْ يُخْمِدِ الْفَقْرُ جَذْوَةَ الْحُبِّ فِيْ قَلْبِي نَحْوَهَا ، إِلَى أَنْ جَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِيْ كَانَتْ تَتَأَلَّمُ وَتَتَأَوَّهُ مِنَ الأَوْجَاعِ وَأَنَا أَقِفُ أَمَامَهَا عَاجِزاً ، لا حِيلَةَ ، إِلَى أَنْ قَالَتْ : إِنِّي أَمُوتُ ...فَاذْهَبْ فَاحْتَلْ بِشَيْءٍ تَشْتَرِي بِهِ عَسَلاً وَدَقِيقاً وَشَيْرَجاً ، اذْهَبْ وَعَجِّلْ فَإِنَّكَ إِنْ أَبْطَأْتَ فَرُبَّمَا لَمْ تَجِدْنِي.

هُرِعْتُ مِنَ الْبَيْتِ وَلا أَدْرِي مَاذَا أَصْنَعُ ،كَانَ اللَّيْلُ قَدْ أَرْخَى سُدُولَهُ وَخَلَتِ الأَزِقَّةُ مِنَ الْمَارَّةِ ، فَسَرَى فِيْ عُرُوْقِيْ شُعُوْرٌ بِالْعَجْزِ ، أَصَابَنِيْ بِالشَّلَلِ عَنْ تَوْفِيرِ لُقْمَةٍ مِنْ طَعَامٍ . فِي غَمْرَةِ الْحُزْنِ وَالْيَأْسِ لَمْ أَدْرِ أَيْنَ كَانَتْ تَسُوقُنِي قَدَمَايَ ، فَلَمْ أَجِدْ نَفْسِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ إِلَّا عِنْدَ نَهْرِ دِجْلَةَ ، فَأَقْبَلْتُ نَحْوَهُ أُخَاطِبُهُ :ألا تَضُمُّنِي فِي أَحْشَائِكَ عَلَّكَ تُزِيحُ عَنِّي هُمُوْمَاً أَثْقَلَتْ ظَهْرِي وَأَنْهَكَتْ وِجْدَانِي ، وَرَفَعْتُ رَأْسِيْ تِجَاهَ السَّمَاءِ قَائِلاً:

يَا رَبِّ إِنِّيْ اسْتَوْدَعْتُكَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ وَمَا فِي بَطْنِهَا.

وَمَا كِدْتُ أَفْعَلُ حَتَّى اِنْطَلَقَ أَذَانُ الْفَجْرِ ، وَكَأَنَّ يَداً تَدْفَعُنِي إِلَى الْخَلْفِ وَتَجُرُّنِي مِنْ قَمِيْصِي ، فِي تِلْكَ

اللَحظَاتِ تَذَكَّرْتُ زَوْجَتِي المُسْجَاةَ مِنَ الأَلَمِ وَطِفْلِيَ الَّذِيْ مَازَالَ فِي أَحْشَاءِ أُمِّهِ ، فَرَجَعْتُ إِلَى الْبَيْتِ أَنْظُرُ مَاذَا صَنَعَتْ مَعَ تِلْكَ الآلامِ ، وَمَا إِنْ دَنَوْتُ حَتَّى كَانَتِ النِّسْوَةُ يُحِطْنَ بِالدَّارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَهُنَّ يَصْرُخْنَ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّ المَوْتَ قَدْ هَبَطَ فِي الدَّارِ وَأَخَذَ زَوْجَتِي وَغَادَرَهَا ، فَلَطَمْتُ وَجْهِي ، وَشَقَقْتُ ثَوْبِي وَأَخَذْتُ أَهِيمُ عَلَى وَجْهِي وَالأَرْضُ تَطْوِي صَحَائِفَ عُمُرِي ، إِلَى أَنْ حَطَّتْ بِيَ قَدَمَايَ فِي خُرَاسَانَ ، وَامْتَدَّ الْعُمُرُ فِيْهَا خَمْساً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً، أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا فِيهَا عَلَيَّ مِنْ جَدِيدٍ ، فَسَرَى المَالُ فِي يَدَيَّ بَعْدَ أَنْ جَفَّتْ مِنْهُ سِنِيْنَ طِوَالٍ ، وَرَغْمَ السَّعَادَةِ الَّتِيْ عَادَتْ بَعْدَ أَنْ أَعْرَضَتْ عَنِّي ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْضِيْ يَوْمٌ إِلَّا وَتَذَكَّرْتُ فِيْهِ بَيْتِيْ فِي بَغْدَادَ وَالأَيَّامَ الَّتِي كَانَتْ فِيْهِ ، فَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَؤُمَّ تِلْكَ الدَّارَ ، أَقِفُ عِنْدَ قَبْرِ حَبِيْبَةٍ لَمْ يَطْوِ طُوْلُ الْعَهْدِ وَالنَّأْيِ ذِكْرَهَا .وَمَا إِنِ اقْتَرَبْتُ مِنْ بَغْدَادَ وَوَلَجْتُ أَزِقَّتَهَا حَمَلَتْنِيْ قَدَامَايَ نَحْوَ الْمَحَلَّةِ الَّتِيْ كُنْتُ أَقْطُنُ فِيها لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ دَارِيَ الَّتِي أَعْرِفُهَا وَلَمْ أَجِدْ مِمَّنْ كَانَ يُجَاوِرُنِي أَحَداً ، إِلَّا بَقَّالاً كَانَ وَمَازَالَ فِيْ مَحَلِّهِ ، فاتَّجَهْتُ نَحْوَهُ ، فَإِذَا فِيْهَا شَابٌّ حَدَثٌ عَلِمْتُ مِنْهُ أَنَّ أَبَاهُ البَقَّالَ الَّذِي كُنْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ ، قَدْ مَاتَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةٍ وَأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِيْ أَمَامَهُ لِابْنِ دَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ المَأْمُونِ وَصَاحِبِ بَيْتِ مَالِهِ ، وَأَنَّ لِهَذَا الرَّجُلِ قِصَّةً عَجِيبَةً وَهِيَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ مِنْ كِبَارِ التُّجَّارِ ، وَلَمَّا تَزَوَّجَ أُولِعَ بِامْرَأَتِهِ وَعَكَفَ عَلى صُحْبَتِهَا ، حَتَّى افْتَقَرَ وَجَاءَهَا المَخَاضُ ، فَذَهَبَ يَطْلُبُ لَهَا شَيْئاً فَلَمْ يَرْجِعْ وَأَسْعَفَهَا أَبُوهُ الْبَقَّالُ حَتَّى وَلَدَتْ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ الزَّمَنَ الَّذِي وَلَدَتْ فِيهِ هَذِهِ المَرْأَةُ وَلَدَتْ فِيهِ أَيْضاً زَوْجَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ الرَّشِيدِ فَطَلَبَ لَهُ المَرَاضِعَ فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِوَى هَذِهِ المَرْأَةِ ، وَصَارَتْ مُرَبِّيَتَهُ وَكَانَ المَوْلُودُ هُوَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ المَأْمُونُ.

لَمْ أُصَدِّقْ مَا سَمِعْتُ مِنْ اِبْنِ البَقَّالِ فَقَدْ جِئْتُ زَائِراً لِقَبْرِ زَوْجَتِي، أَسْتَجْمِعُ عِنْدَهَا الْعَبَرَاتِ وَالأَحْزَانَ ،وَإِذْ بِي أَجِدُهَا حَيَّةً تُرْزَقُ ، تَذَكَّرْتُ حِينَهَا أَنِّي اسْتَوْدَعْتُهَا اللهَ جَلَّ وَعَلا ، وَهِيَ الْوَدِيعَةُ الَّتِي عَادَتْ بَعْدَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ ، أَفْضَلَ حَالاً مِمَّا كَانَتْ بِيَدِي، وَانْطَلَقْتُ مُسْرِعًا نَحْوَ بَيْتِي أَرْوِي ظَمَأَ نَفْسِي مِنْ زَوْجَتِي وَوَلَدِي.